

زوار القصة وظواهر المجتمع المصري

بقلم الدكتور عبد الحميد إبراهيم

تمهيد

(١)

لمصر موقع استراتيجي هام جعلها حلقة اتصال بين ثلاث قارات، ومقصدا لكثير من الغامرين الطامعين في خصوبة وادي النيل وخيرانه ، وفي الحكم من ناحية تجارية وعسكرية . فازدحمت واصطرت على صدرها جنسيات مختلفة . الانجليز والفرنسيون يتنافسون بجيوشهم وسياسيهم ، فيحاول كل فريق ان ينشر ثقافته وحضارته وأن يستولي على أكبر نصيب من اسهم قناة السويس ، والأتراك والشراكسة والماليك يمارسون صنوف العنجهية ويطلقون لرغباتهم وشهواتهم العنان . وكل هذا في غفلة من الفلاح المصري الأصيل الذي فرضت عليه ظروفه التاريخية القاسية الكثير من التبلد والسداجة ، فلم يتنبه ولم يقاوم تلك المؤامرات الاستغلالية التي كانت تحاك حوله ويعمل على تجريده من ارضه وامتصاص موارده البشرية والاقتصادية .

فالمغامرون الاجانب كثر تدفقهم ، واستخدموا كل اساليب الذكاء والمكر من اجل الاستيلاء على الموارد الاقتصادية ووجدوا فرصتهم في اضطراب اسماعيل للاستدانة والرهن (في سنة ١٨٧٧ رهن ١٨٥،١٣١) فدانا لاجد بيوتات المال الاوروبية، ثم رهن في السنة التالية ٢٥،٧٢٩ فدانا لبيت روتشيلد) (١) . وشرعوا من القوانين ما يحمي عملية الاستقلال ويضفي عليها صفة الشرعية ، فانشأوا سنة ١٨٧٦ المحاكم المختلطة التي نشطت عن طريق الرهن والفوائد والاجراءات المعقدة في تجريد المصري من ارضه وضمها للاجنبي (ولقد بلغت مساحة الاراضي التي باعها المحاكم المختلطة في سنة ١٨٨٣ جيرا عن اصحابها ٢٢،٤٧ ، وفي سنة ١٨٤٤ بلغت مساحتها ١٨،١٤٨ ، وفي سنة ١٨٨٥ بلغت ١٧،٨٢٨ ، وفي سنة ١٨٨٦ باعت المحاكم المختلطة ١٢،٩٦٩ ، وهكذا بلغت ملكية الاجانب في سنة ١٨٧٨ ما مساحته ٢٢،٤٨١ ، وبعد عشر سنوات اصبحت ٥٥،٠٠٠ اي بنسبة ١١ - ١٢ بالمائة من جميع اراضي البلاد بعد استبعاد ارض الحكومة) (٢) .

اما الاتراك فهم المنصر الحاكم ، فكان من الطبيعي أن يفرب الحاكم اهله ويفدق عليهم المنح والامتيازات (وكان كل امير بأسي للحكم يحابي فرع العائلة الذي ينتهي اليه وهكذا تكونت الدائرة السنوية ، وكان مجموع مساحة اراضيها ٥،٣،٩٩٩ فدانا فسي

سنة ١٨٨٠ ... وفي سنة ١٨٨٤ بلغت مساحة اراضي الابعديات والعهد والجفالك في الوجه البحري ١،٤٦٤،٥٥٩ فدانا مقابل ٦٧٤،١١٤ فدانا للفلاحين) (٣) .

وبجانب هذه الفئات المستقلة نشأت طبقة من المصريين تطلعت الى المناصب العليا والامتيازات التي تتمتع بها الطبقات العليا من الأتراك والاجانب ، فعملت على التقرب الى السلطان ومؤازرته في تنفيذ مخططاته ، فكافأها بمنح الاقطاع والابعديات . ومحمد علي هو واضع اساس هذه الطبقة ، فمنح ٥ بالمائة من مساحة القرى في مصر الى مشايخ البلاد (العمد) وعرفت هذه الارض باسم مسدوح المشايخ او مسدوح المصطبة ، وتوالت «فرماناته» بالابعديات والجفالك وكذلك فعل خلفاؤه من بعده ، وفي محفوظات عابدين سجل طريف عنوانه «الاراضي التي صار اربابها واحسانها بأمر فخامتوا الخديو اسماعيل باشا» ووردت فيه قائمة بمئات الاسماء من العائلة المالكة وانباعها ومحسوبيها ، وبلغت مجموعة هذه الهبات ٨٧٦،٨٦٣ فدانا (٤) .

ونظمت عملية جشعة ومخططة لتجريد الفلاح من ارضه ، فالاجانب عن طريق الربا والرهنونات والامتيازات جعلوا يسولون على الارض، وتوسعت المحاكم المختلطة في نظرية الصالح المختلط حماية للمصالح الاجنبية ، وصدر تشريع القانون المدني المختلط «المجموعة المدنية المختلطة سنة ١٨٧٦» فاعترف لصالح الاجانب بالملكية وأنها الحق التام للمالك في الانتفاع والتصرف المطلق فيما يملك .

وشرع الخديو ومعها اكابر الدولة يستخدمون شتى الطرق والتشريعات للاستيلاء على الارض فأصدر سعيد سنة ١٨٥٠ أمرا بتنظيم ترك الارض ، وفي سنة ١٨٥٨ اصدر امرا جديدا ببيع الاراضي الخراجية التي تركها الاهالي ، ووزع جزءا منه على افراد العائلة الخديوية وبعض اكابر البلاد وبعض موظفي الحكومة ، وكانت الضريبة على ارض الفلاح (الارض الخراجية) اكبر من الضريبة على ارض كبار الملاك (الارض العشورية) ففي سنة ١٨٧٧ بلغ مجموع الخراج نسعة أمثال العشور ، على الرغم من ان مساحة الاراضي الخراجية كانت حوالي ضعف الارض العشورية (٥) .

(٣) المرجع السابق .

(٤) «قصة الارض في مصر» تأليف محمد صبيح ص ٥٧ (القاهرة

- المكتبة الثقافية - ١٥ سبتمبر سنة ١٩٦٠) .

(٥) انظر مجلة «الطليعة» القاهرية (يناير سنة ١٩٦٥) ص ٢٢

(١) مجلة «الطليعة» القاهرية (يناير سنة ١٩٦٥) ص ٢٨

(٢) المرجع السابق ص ٢٨

والنتيجة الحتمية لكل هذا هو حدوث اختلال في البناء الطبقي، تورم من جانب يفايله هزال من الجانب الآخر ، فمة ضئيلة من الاجانب والحكام والباشوات تمتلك معظم ثروات البلاد وتفعد فوق فاعسدة عريضة لا تمتلك الا التزر اليسير .

ومن الجدول رقم (١) يتبين ان طبقة كبار الملاك (٥٠ فدانا فأكثر) كانوا يمتلكون قبل قوانين اصلاح الزراعي نسبة ٤٢/٢ بالمئة من المساحة المزروعة بينما كانت نسبة عددهم ٤٤ بالمئة من مجموع الملاك ، وطبقة متوسطي الملاك (من ٥ الى ٥٠ فدانا) كانت تملك ٢٠٤٤ بالمئة بينما يبلغ عددهم ٥٤٣ بالمئة ، وطبقة صغار الملاك (اقل من خمسة افدنة) كانت تملك ٢٥٤٤ بالمئة بينما يصل عددهم الى ٦٤٤٣ بالمئة .

ومن الجدول نفسه يتضح ان مجموع عدد الملاك - على اختلاف المستويات - يبلغ ٢٤٨٠١٤٠٠٠ وهي نسبة ضئيلة للغاية اذا فورت بعدد السكان الذي وصل الى ١٨٤٩٦٦٤٧٦٧ على حسب احصائية سنة ١٩٤٧ (١) . وبهذا نستطيع ان نتصور ذلك الوضع الذي تعيش فيه غالبية الشعب ، بل ان هناك فئة من العمدين تماما ، هم فئسة (عمال التراحيل) ، الذين يقول عنهم الميثاق «انهم عاشوا ظروفًا اقرب ما تكون الى السخرة تحت مستوى من الاجور يهبط كثيرا ليقرب من حد الجوع ، كما ان عملهم كان يجري من غير اي ضمان للمستقبل ولم يكن في طاقمهم ان يعيشوا سني حياتهم خلال بؤس الساعات وفسوتها الرهيبة » .

جدول رقم ١ (شكل ملكية الارض في سنة ١٩٥٢)

حجم الملكيات	عدد الملاك	المساحة النسبية	النسبة المئوية	حجم الملكيات	عدد الملاك	المساحة النسبية	النسبة المئوية
اقل من خمسة افدنة	٢٦٤٢	٢١٢٢	٩٤٤٣	٢٥٤٤	٢٦٤٢	٢١٢٢	٩٤٤٣
من ٥ الى ١٠	٧٩	٥٢٦	٢٤٨	٨٤٨	٧٩	٥٢٦	٢٤٨
من ١٠ الى ٢٠	٤٧	٦٢٨	١٤٧	١٠٤٧	٤٧	٦٢٨	١٤٧
من ٢٠ الى ٥٠	٢٢	٦٥٤	٠٤٨	١٠٤٩	٢٢	٦٥٤	٠٤٨
من ٥٠ الى ١٠٠	٦	٤٣٠	٠٤٢	٧٤٢	٦	٤٣٠	٠٤٢
من ١٠٠ الى ٢٠٠	٣	٤٣٧	٠٤١٢	٧٤٣	٣	٤٣٧	٠٤١٢
اكثر من ٢٠٠	٢	١١٢٧	٠٤٠٨	١٩٤٧	٢	١١٢٧	٠٤٠٨
المجموع	٢٨٠١	٥٩٨٤	١٠٠	١٠٠	٢٨٠١	٥٩٨٤	١٠٠

وكان هناك فريق من علماء الدين يباركون هذا الرضع، ويخرعون من الاحاديث والفتاوى ما يرضي السادة الكبار وينجح لهم اكبر قدر من الاستغلال ، ويجعل الفئة المظلومة تعيش في تخدير ووهم، نكروهم في الدنيا ، ويحبسون اليهم حياة الفقر ويعزونهم بالنصر والنعاعة ، ويطمعونهم في جنات اكثر عرضا من تلك الاراضي الشاسعة النسبي حرموا منها .

وكذلك كان يساعد الحكام والملاك طبقة من الموظفين والاداريين، لهم من الحرية ما يشاعون في استعمال اساليب التعذيب والفهر وفي قتل روح المقاومة في نفوس الفلاحين وجباة اكبر مقدار من المال . ويعطينا مؤلف كتاب «هز الفخوف» نموذجا لهذه التصرفات وهو يعلق على قول «ابي شادوف» اي الفلاح :

وبوم يجي الديوان تبطل مفاصلي وأهر على روعي من التخوف
- يعلق فيعطينا صورة واضحة عن الاضطهاد الذي بالافيه الفلاح ابو شادوف «ان النصراني اذا حضر للعربية وفرض المال على الفلاحين وشرع في اخذه ، فيكثر الخوف والضرب والحبس ان لا يقدر على غلاق المال ، فمن الفلاحين من يقترض الدراهم بزيادة او يأخذ على

(١) انظر «مشكلة السكان في مصر» تأليف محمد خزيك ص ٢٧ (القاهرة - الدار القومية سنة ١٩٦٦) .

زرعه الى اوان طلوعه بناقص عن بيعه في ذلك الزمان، او يبيع بهيمته التي تحلب على عياله ، او يأخذ مصاغ زوجته يرهنه او يتصرف فيه بالبيع ولو فها عليها ، ويدفع الثمن للنصراني او لمن هو منولسي قبض المال ، وان لم يجد شيئا ولا يرى من يعطيه وخشى المشد او الملتزم من هرابه (كذا!) من البلد احضر ولده رهينة عنه حتى يفلق المال ، او يأخذ اخاه ان لم يكن له ولد او احدا من اقاربه ، ويوضع في الحبس للضرب والعقوبة حتى تنفذ فيه احكام الله تعالى (!) ومنهم من يهرب بنفسه تحت ليله ويترك اهله ووطنه من هم المال وضيق المعيشة « (٢) .

ولا نزال نطلق في اذهاننا صورة «العمدة» كنهودج مصغر للمستبد في القرية ، اذ كان وكيل الحكومة وعينها على الفلاح وصاحب الكلمة النهائية في ربط الضريبة على الارض وبيان اي الاراضي لم تكن تنتج فعفى من الضريبة ، وأي الاراضي تنزع للمنفعة ، وان تؤول الارض بعد وفاة المنتفع بها ، وكان يهيمن على الاجراءات التي تتم على الفلاحين بسبب نقصيرهم في دفع الضريبة ، وهو المسؤول عن تقديم العدد الكافي للسخرة وترحيل انفار القرعة .

وهكذا يتحلل المجتمع في النهاية الى طبقتين متفاوتتين تمام التفاوت ، طبقة اقطاعية (لاندوقراطية) تستعين بفئة من علماء الدين (ثيوقراطية) لكي نخدر الشعب وبمجموعة من الاداريين (بيروقراطية) لتكون اليد التي تشرف على تنفيذ مخططاتها . نقابلها الطبقة المستقلة والحرومة من فائض القيمة ، بينما تفصل الطبقة الوسطى عن جماهير الشعب وتعيش لانائيتها وانتهازيتها ، تحاول التمرغ في «تراب الميري» والتمسح باعتاب الطبقة العليا .

وفي الوقت نفسه تعرضت الطبقة المتوسطة لضغوط اجتماعية قاسية وظروف نفسية لا تسمح لها بالنمو والتكاثر ، فالاشخاص الذين كان يتاح لهم قدر من الثقافة او المال يتقلصون ويتحولون الى الطبقة الفقيرة بعد ان يتعرضوا لضغوط الاقطاع ومحاولته الاستيلاء على ما يملكون وعرفلة نشاطهم . ومن الجدول رقم ٢ نرى ان الاتجاه العام لهذه الطبقة هو الهبوط خلال الفترة ١٩١٤ - ١٩٥٢ سواء من حيث نسبتهم العددية او معدل ملكية كل فرد .

وأمر اخر كان يصيب هذه الطبقة بالانكماش وبضعف من فاعليتها ولا يبرز دورها في الصراع الاجتماعي ، هذا الامر هو عمدة التطبيقية ومحاوله الانتساب للطبقة العليا والتشبه بها وبضخون من اجل ذلك بضحيات غالبية ، فد تكون في التنكر للاهل او الوطن او رفض العادات والتقاليد ، في محاولة للنخلص من طبقتهم والانضمام الى طبقة «الذوات» عن طريق تقليدهم في الزي والمظهر واللفة واستعمال الكلمات العصرية (الفرنسية بنوع خاص) وفي الزواج من الاجنبيات او من بنات «الذوات» او من التريكات ، وقد انتشرت في هذه الطبقة اخلاقيات قوامها : التزلف لجانب والتشكر للجانب الاخر ، وهذا يعني التناقص وانسطار النفس الواحدة .

جدول رقم ٢ (تطور الملكيات من ٥ الى ٥٠ فدانا)

عدد الملاك بالالف	النسبة المئوية	معدل ملكية كل فرد	النسبة المئوية	حجم الملكيات
١٩٥٢-١٩١٤	١٩٥٢-١٩١٤	١٩٥٢-١٩١٤	١٩٥٢-١٩١٤	١٩٥٢-١٩١٤
من ٥ الى ١٠	٧٦٥	٧٩	٤٤٩	٢٤٨
من ١٠ الى ٢٠	٢٧٥	٤٧	٢٤٤	١٤٧
من ٢٠ الى ٥٠	١٨٤٧	٢٢	١٤٢	٠٤٨
من ٥٠ الى ١٠٠	١١	٢٩٤٨	٣٢	٠٤٢
من ١٠٠ الى ٢٠٠	٣	٤٣٧	٠٤١٢	٧٤٣
اكثر من ٢٠٠	٢	١١٢٧	٠٤٠٨	١٩٤٧

(٢) «هز الفخوف في شرح قصيدة ابي شادوف» للشيخ الشربيني ١٢١/٢ (القاهرة - المطبعة الاميرية سنة ١٣٠٨) .

وقد تكون هذه المحاولة قد فصرت عن بلوغ الصورة المثالية التي نطلع فيها على شخصية مصرية متكاملة ، تحمل ثقل التاريخ والرواسب الشعبية والابعاد الاجتماعية والسياسية ، فاكتفت بظواهر الاشياء وبعض المشكلات ، دون النطق الى اصول الاشياء وجنور المشكلات . ولكنها خطوة في الطريق الصحيح ، الطريق الذي يصحح الاوضاع ويزيل التناقض ويثبت الشخصية المصرية في جنورها القوميّة وازماتها المصرية العالمية .

اننا سنتناول بالتفصيل موقف رواد القصة من التركيب الاجتماعي اولا ، ثم من الشخصية المصرية حصيلة هذا التركيب ثانياً ، وذلك بعد ان قدمنا صورة مجملة للواقع التاريخي الذي عاشه هؤلاء الرواد .

١ - القصة والتركيب الاجتماعي

نعترف بان قصة الرواد لم تستطع ان تمتص الشعب بكل ما فيه من تناقضات ، فتقدم لنا صورة كاملة لحياته ولصراع الطبقات ، ولكل ما يصحب فترة التحول وعصر النهضة من قلقلة واضطراب ، على الرغم من الدعوة الملحة الى خلق ادب يكشف عن الروح المصري كما هو (٤) ، وانشاء فن مصري (يكون قائما بذاته ومستقلا عما يقابله او يشاكله عند الامم الاخرى) (٥) .

فلم تقع في تلك الفترة على قصة من تلك الفصص المركبة التي تتزاحم فيها الشخصيات وتتصارع في علاقات حية ونمو من خلال مواقف طبيعية وتسيرها ارضية فلسفية ، ونحس فيها اننا امام حياة هذا الشعب ومع واقعه المضطرب المتناقض ، وقد استطاع الفن ان يتبطن وراء هذا الواقع الصور الانسانية الخالدة ، في هيئة تقاثل الفرائز وتتصارع الرغبات . يقول ابراهيم المصري «ان قصة شعب تتجاذبه اهواء القديم والحديث ، قصة شعب يتلمس اسباب حياته الرجبة الطليقة ، قصة شعب نظرم بين جوانحه الرغبة في تسلق جبل الحضارة وحمل مسؤوليات الحرية ، لهي قصة لم يقرأ في تاريخ الادب اروع منها ، وهي التي متى كتبناها فتحنا في ادبنا المصري الفتح الجديد» (٦) .

فلم ينجح يحيى حفي ولا المازني ولا ابراهيم المصري ولا اعضاء المدرسة الحديثة (اصحاب صحيفة الفجر) ولا غيرهم في خلق هذه القصة المركبة ، او كما يعترف يحيى حفي «كنا نحس اننا لا نحترق الا فشرة السطح وأن العمق والمستقبل يخفيان الكثير من الكنوز والالغام . وكنا نحس كذلك ان الفن لا يشير في قلوبنا الا استجابة عاجلة مندفعة كانتها هبة نافورة البترول عند اول اكتشاف البئر، كما كنا نحس ايضا ان كثيرا من هذا الفيض سيتبدد هباء وان العمل الصحيح يحتاج الى جهد كبير للضغط والتركيز والصبر والتأمل» (٧) .

ونعترف ايضا بان قصص هذه الفترة لم تعد بصورا متكاملة للصراع الطبقي ولا لتركيب الشعب من خليط متنافر يشير الحيرة والاضطراب «الاب مثلا فلاح معمم من صميم الريف والام سيدة منحدره من اصل تركي وانباء الاسرة في مدارس على النظام الانجليزي ، وفتياتها في مدارس على النظام الفرنسي ، كل هذا بين روح القرن الثالث ومظاهر القرن العشرين» (٨) . ولم تنتبه القصة للتحول الثوري

(٤) «خطوات في النقد» تأليف يحيى حفي ص ٦ (القاهرة - مطبعة المدني - د.ت) .

(٥) «ابراهيم الكاتب» تأليف المازني ص ١٢ «المقدمة» (القاهرة - مطبعة دار الترقى سنة ١٩٣١) .

(٦) «الادب الحي» تأليف ابراهيم المصري ص ٦٤ (القاهرة - دار العصور سنة ١٩٢٠) .

(٧) خطوات في النقد ص ١٩٦

(٨) «فلسفة الثورة» للرئيس جمال عبد الناصر ص ٤٧

- التتمة على الصفحة - ٧٦ -

وحمفا وانانية وجريا وراء الملاذ . يقابل هذا استكانة من الطبقات الفقيرة ورضا بالكتوب وخوف من السلطة وسوء ظن بالحكومة وبكل مشروع جديد ولجوء الى السخرية والثورية «والقفشة» السريسة البدالة وولع بالموال الحزبن وبالنأي الشجي وبالاغنية الشاكية «يا ليل يا عين» ، وترديد لامثلة سلبية اتكالية ، ولادب شعبي فيه الخوف من الحاكم واللامبالاة امام الاحداث وهروب من حياته الواقعية الى حياة وهمية يجلبها «الحشيش» او الى حياة الدراويش والمجاذيب التي لا تفيق فيها من الازكار . يقول الدكتور جمال حمدان : «ولهذا فان الصفات والمزايا الاخلاقية التي يجدر بالبيئة الفيزيائية ان تعلمها -وعلمتها بالفعل حينئذ- لم تلبث ان انحرفت تحت البطش والظلم والاقطاع وفي ظل انتحابه الاجتماعي الموعج الى نقائصها ، فالنظام والقانون اصبحا جنبنا واستكانة ووشاية او سلبية ، وروح القانون التي تربط السكان اصلا ضد العنصر تحولت الى المحسوبة والمحاباة كما انقلبت الى الاخذ بالثار ، اما المزاج الانطلافي الذي غذته بيئة القرية النووية فتدهور الى تزلف ورياء وسعي لدى السلطان وكذلك الى روح السخرية الريرة المشهورة» (١) .

ولا نجد اصدق من الادب الشعبي في رسم ذلك الوجدان المذعور وتصوير ذلك الوضع المقلوب ان الكل يتآمر على الفلاح ولا يجد من يتعاطف معه ويتفهم ظروفه ، انه حين يأتي الى المدينة يكون مشار السخرية والتندر والاستغلال من كل من يقابله من العواهر وصاحب الحمام والجندي ، ويجعله ذكر السلطان يعيش في رعب وهلع ، فحين التقى ابو نواس «بقحف من فحوف الريف» على حد تعبير صاحب «هز القحوف» وعرض عليه ان يجعله الى الخليفة صرخ الفلاح «يا جندي السلطان يقطع روس الفلاحين ولا يخلصي فلاح من غير قطع راس» (٢) .

وجاءت امثلتهم تسخر من هؤلاء السادة الظالمين ، من الحكام وعملائهم من التنفيذ ، من القاضي وجامع الضرائب والجندي «اخر خدمة الفرستكر» «قالوا للقاضي يا سيدنا الشيخ الحيطه شيخ عليها كلب قال تهدم سبع وتبني سبع ، فالوادي اللي بيننا وبينك قال اقل الماء يطهرها» «ابن الحرام يطلق يا قواص يا مكاسي» «ان كان دراعك عسكري اقطع» ... الخ .

وتوالت مواويلهم تلعن هذه الدنيا المقلوبة التي جعلت «ابن البلد» الاصيل نهبا للذخلاء والفامرين ، وترجو من الله تصحيح الاوضاع واعادة المياه الى مجاريها !

حكمت ع السبع راح للكلب حد الكوم

لما صحي الكلب جال لو السبع صبح النوم

انا اسالك يا رب ما مجرى بحر العوم

ترجع السبع يخطر زي عادته

وترجع الكلب ينبش في تراب الكوم (٣)

ان القصة وقتت لتقاوم هذا الوضع المقلوب . فالعناصر الطافية فوق السطح والتي توجه مصير البلد وتسخر مواردها الاقتصادية والبشرية في تثبيت مصالحها ، جعلت القصة توجه اليها الوخزات والتشكيك في حقوقها المقدسة ، واخذت تسخر - احيانا في صورة كاريكاتورية - من العناصر الدخيلة وتوجه اللوم الى الطبقات المتورمة ، وكل ذلك في محاولة للكشف عن الشخصية المصرية واثبات ذاتها .

(١) «شخصية مصر» للدكتور جمال حمدان ص ٨٧ (القاهرة -

كتاب الهلال - العدد ١٩٦ .

(٢) هز القحوف ١/١٤

(٣) «الادب الشعبي» تأليف رشدي صالح ص ٦٦ (القاهرة -

مكتبة النهضة سنة ١٩٥٥) .

رواد القصة وظواهر المجتمع المصري

تتمة المنشور على الصفحة - ١٦ -

من الباشوات واولاد «النوات» ، فقصه «بيت الكرم» (١٣) مثلا تناولت بطريقة مباشرة تقريرية خالية من الموقف حياة ابن النوات الذي اضلته بطانة السوء، وقصة «واسطة تعارف» (١٤) تعرض باولاد النوات الذين لا عمل لهم سوى الشرب والسهر، وقصة «يحفظ في البوستة» (١٥) تصور حياة ثلاثة من الشبان الارستقراطيين الفارغين ، وقصته «الجنون فنون» (١٦) عن شاب مستهتر اضاع ثلاثمائة فدان وقد بالغ في تصويره مبالغة جعلت احد القراء يعلق على هوامشها بقوله « غير طبيعي» ، وتعد قصة «الجريمة الاخيرة» (١٧) لاحمد خيرى سعيد جرائم اسماعيل بك «آمنة بنت حسنين نستقبل الشمس كل يوم بالتضرع الى الله ان يخرّب بيته ولا يهنيه على عمره ، او زوج اخته التي ماتت دون ان تترك ولدا او بنتا يتهم سمعه ولا يريد ان يصدق ان وجيها كاسماعيل بك يصرح امام المحكمة الشرعية ان اخته كانت عايشة مع زوجها في الحرام ، او عويس آبوريه لايتي يستهبط عليه غضب الله وينمى ان يراه كفيفا مثله يقوده عكاز في حارات القرية وعطفانها متسولا تستر الهلهيل بعض جسمه ، ومبروك عبد الصال يقص على اهل القرية وبعد ان يأخذ الموائيق والمهود عليهم ان يكتموا السر ، حكاية اغتصاب اسماعيل بك فراريطه التسعة بالهيلسة والتهديد» .

وصور القصص الاثراك والشراكسة في صورة تسخر من حمقهم وعنجهتهم ، وتظهرهم في قلوب جامدة لا تلين للفلاحين ، وتستمسك بروين مكرور وتخضع لقوانين صارمة ، «فام محسن» في رواية «عودة الروح» سيدة فاسية تشق المظاهر والشكليات وتحب التقليد وتحترق زوجها لانه «فلاح جيدي» ، ويكثر من فقص محمود تيمور التحكم من هذه النماذج وتصوير انحرافها (وقصة فدمح ماء وليومونة) ، وحمقها (قصة الشيخ سيد العبيط) وبخلها (قصة حسن آغا) وجريها وراء الملاذ (قصة الحاج فيروز) وولعها بالمظاهر والشكليات والصرافة والمظلمة (رواية الاطلال) .

وسخرت القصص بطريقة واضحة من بعض علماء الدين ممن سخرها انفسهم لخدمة الاغنياء ، اذ نمى الرواد لخطرهم وقدرتهم على التأثير وروج الافكار المخدرة التي تصفي على عملية الاستقلال والنهب شيئا من المشروعية ، فيكاد لا يرا قاص من التحكم بهم وبيان خطرهم ، مثلا فعل ذلك محمد تيمور في قصته «في الفطار» ومحمود تيمور في «سيدنا» و«الشيخ نعيم» ، وطه حسين في «الايام» ومحمود طاهر لايش في «حديث القرية» .

وهاجمت القصص الجهاز الاداري المسخر لخدمة الاغنياء وتحصيل الضرائب وتنفيذ السخرة ، فتكشف رواية «يوميات نائب في الاريف» عن فساد الجهاز الحكومي الذي يخلو من روح التعاطف والتفهم لظروف الفلاح ولا يفكر الا في نفسه ورغبانه . وقصة «الشوايش بغدادى» (١٨) تصور رجل الشرطة الذي يرتعد حين يتخيل « حضرة الملاحظ او جناب المأمور» ، ثم يعوض ذلك عن طريق قسونه على الرباة والسائقين ...

ونال «العمدة» حظ كبير من هذا التهجم باعتباره الاداة المسخرة

- (١٣) انظر «ما تراه العيون» بقلم محمود تيمور ص ٢٣ (القاهرة - المكتبة العربية سنة ١٩٦٤) .
- (١٤) انظر «الشيخ جمعة» ص ٤٧
- (١٥) المرجع السابق ص ٦٩
- (١٦) المرجع السابق ص ٨١
- (١٧) انظر صحيفة «الفجر» (١٨ اكتوبر سنة ١٩٢٥)
- (١٨) انظر «يحكى ان» للاشين ص ٢٩ (القاهرة - المكتبة العربية سنة ١٩٦٤) .

الجنردية التي تقوم على تغيير في البناء الاجتماعي واعادة توزيع الثروة على اساس من العدالة الاجتماعية ، على الرغم من ان كثير من الرواد قد فراوا لجوجل وبوشكين ودستوفسكي وارترباتشيف وجوركي (١) . وكان علاجهم لهذه الاوضاع الطبقية علاجا تقليديا لا يمس الجذور ، يبدأ من نقطة ان الملكية حق مقدس مالمكها . فالمعتدي عليها لص يجب ان يقتل (قصة رجل رهيب) (٢) ، او على الاقل يجب ان يسجن (قصة صابحة) (٣) .

ولهذا اكنفوا بمخاطبة قلوب الاغنياء ودعوتهم الى الاحسان والرحمة بالفقراء ، والحث على التسرع والعطايا والتفضل مما اعطاهم الله ، ومن هنا نفهم سر الفصص الكثير التي تفيض في البخل وتنفرد من شخصيات شحيحة (ميراث الشح) (٤) - الست تودد (٥) - موزلة الموت (٦) - حسن آغا (٧) .

ومن الناحية المقابلة كانوا يسكبون دموعهم من اجل الفقراء ويتوجون لمآسهم بطريقة رومانسية عاطفية . ان قول المنفلوطي فى اهداء عبراته «الاشقياء في الدنيا كثير وليس في استطاعة بائس مثلي ان يمحو شيئا من بؤسهم وشقائهم ، فلا اقل من ان اسكب بيمن ايديهم هذه العبرات لهم يجدون في بكائي عليهم سلوى وتعزية» - يصدق على موقف القاص من الطبقة الفقيرة ، او الطبقة «المنحطة» كما يسميهم عيسى عبيد (٨) .

اما الطبقة المتوسطة - وهذه هي الناحية الثالثة - فقد كان نصيبها من قصص الرواد ضئيلا كنصيبها من الحياة الواقعية ، فقد سرقت منها الطبقة الترفة الاضواء واستاثرت دونها الطبقة الفقيرة بالدموع ، فظهرت على استحياء ، واكتفت القصص القليلة التي عبرت عنها كقصص احمد خيرى سعيد بتصوير احباطها (قصة مخدر) (٩) او تعلقها بالمظاهر (قصة ام شحاتة) (١٠) او تحديها للصفوة الاجتماعية (قصة من الكوخ الى القصر) (١١) او انكسارها امام هذه الصفوة (قصة عريس الغفلة) (١٢) .

ولكنهم - وهذه خطوة صورا مفاصد الطبقة الراقية وسخرها

- (١) «فجر القصة» بقلم يحيى حقي ص ٨١ (القاهرة - المكتبة الثقافية - العدد ٦) .
- (٢) انظر «فرعون الصغير» تأليف محمود تيمور ص ١٩٢ (القاهرة - دار العلم - الطبعة الثالثة) .
- (٣) انظر «ابو علي عامل ارتيست» تأليف الدكتور محمود تيمور ص ٣٠ (القاهرة - الطبعة السلفية سنة ١٩٣٤) .
- (٤) انظر «وحي الضمير» تأليف الدكتور سعيد عبده ص ١٠٤ (القاهرة - مطبعة جريدة الصباح سنة ١٩٢٣) .
- (٥) انظر «الشيخ جمعة تأليف محمود تيمور ص ٢١ (القاهرة - المطبعة السلفية سنة ١٩٢٤) .
- (٦) انظر «عم متولي» تأليف محمود تيمور ص ١٤ (القاهرة - المطبعة السلفية سنة ١٩٢٥) .
- (٧) انظر «الاطلال» تأليف محمود تيمور ص ١٤٩ (القاهرة - المطبعة السلفية سنة ١٩٣٤) .
- (٨) انظر «احسان هانم» تأليف عيسى عبيد ص ٥٨ (القاهرة - المكتبة العربية سنة ١٩٦٤) .
- (٩) انظر صحيفة «الفجر» (١٠ يولييه - ١٩٢٥) .
- (١٠) انظر صحيفة «الفجر» (١٧ ابريل - ١٩٢٥) .
- (١١) انظر صحيفة «الفجر» (٨ مايو - ١٩٢٥) .
- (١٢) انظر صحيفة «الفجر» (١٤ سبتمبر - ١٩٢٥) .

التي قاسى الفلاح منها الكثير ، او لانه «السبب في ده كلة» (١) على حد تعبير احد الفلاحين .

وقد بدأ المويلحي من قبل فجلب العمدة الى المدينة وجعل يسخر منه في مواطن كثيرة ، من هجميته ومن جهله ومن غفلته وسذاجته ، وركز بنوع خاص على تذلل أمام رجال السلطة ، ينحني على الارض ويلتقط «فم السجارت» لانه تذكارة من حضرة مأمور المركز ، ويطاطىء على يد البرنس ويفلها مرارا بطنا وظهرا ، وحين يرى وكيل المديرية داخلا العنان يصرخ في الخادم بصوت عال «علي بتفضيل الحساب وعين لي فيه ما شربه دولة البرنس وما اكله دولة البرنس وكم شرب اصحاب البرنس وكم شربنا مع البرنس وكم شرب قبلنا البرنس واسأل سعادة البك الوكيل ماذا يشرب وعد لادفع لك كل الثمن المطلوب (٢) .

ثم جاءت القصة ووضعت العمدة في مواقف واحداث لتكشف عن جهله وتعلقه برجال السلطة وقسوته على الفلاحين وظلمه للاهالي ، فمثلا قصة «في القطار» تقدم لنا العمدة بأوصاف خارجية تسخر منه فهو «رجل ضخمة الجثة كبير الشارب أظس الأنف له وجه به آثار الجدري تظهر عليه مظاهر القوة والجهل . ويلتئم شمل الجماعة في القطار ، واذا تلقائيا وبدافع المصلحت يتأزر رجل الدين والعمدة مع الشركس في هجومه على الفلاح ، ويتأزر الثلاثة على خنق روح الثورة والتمرد عند الطالب الصغير . يقول له الأستاذ «واحسرتاه ، انكم من يوم ما تعلمت السرطان فسدت عليكم اخلاقكم ونسيتم اوامر دينكم ومنكم من تبجح وبغى واستكبر وانكر وجود الخالق» . ويقسول الشركس «كان الولد يخاف ان يأكل مع ابيه واليوم يشتمه ويهيم بصفه» ويقول العمدة «كان الولد لا يرى وجه عمته والان يجالس امرأة اخيه» .

وتعرضت بعض القصص للحواجز والحدود التي تضعها الطبقة امام الاحرار ، فتحول بينهم وبين رغباتهم وتزلهم عن الامتيازات التي تريد ان تستأثر بها لنفسها . لقد لخص «الوطواط» هذا الوضع بقوله «ان شبان الطبقة العالية الذين يسمون هنا بالاستقراط لا يتخطون عادة ان لم يكن مطلقا الى بنات الطبقة المتوسطة مهما كان مقدار تعليمهم وتهذيبهم» (٣) . وتحول الطبقة بين حامد وزينب في رواية الدكتور هيكل ، فهي فتاة ريفية عاملة وهو ابن سيد الضيعة ، وانتهى الامر بحل سلمي يتفق وهذه القوانين الاجتماعية ، فقد تزوجت زينب برجل من طبقتها لان النفس تطمح دائما الى شريك من طبقتها كما يقول هيكل (٤) .

وكثير من القصص ينظرون الى هذا الوضع الطبقي وكأنه سنة الحياة لا سبيل الى تغييره وبرجه هيكل (٥) الى قانون الازل منذ كانت حواء وآدم ومنذ ان كان النصف يبحث عن نصفه الاخر والمائل الذي انفصل عنه تحقيقا لارادة الالهة .

وقد حاول سامي في قصته «الاطلال» - وهو من الطبقة الارستقراطية - ان يشذ عن هذه الاوضاع وان يندمج في طبقة المصريين المتوسطين وهو السيد التركي فدفعت «فتحية» المصرية ثمن هذه المحاولة عزلة في الريف ، وحاولت حواء من رواية «حواء بلا

(١) انظر «عذراء دنشواي» لمحمود طاهر حقي ص ٥٥ (القاهرة - المكتبة العربية سنة ١٩٦٤) .

(٢) «حديث عيسى بن هشام» تأليف محمد المويلحي ص ١٩٤ (القاهرة - دار المعارف - الطبعة السابعة) .

(٣) «سخرية الناي» للاشين ص ٦٧ (القاهرة - المكتبة العربية سنة ١٩٦٤) .

(٤) انظر رواية «زينب» ص ٥ (القاهرة - مكتبة النهضة ١٩٦٣)

(٥) المرجع السابق .

آدم» لمحمود طاهر لاشين ان تحطم هذه الحواجز - وهي من الطبقة المتوسطة - فدفعت الثمن ايضا من اعصابها . وحاول «شحاتسة» - وهو كمساري من الطبقة العاملة - ان يتعلق بطبقة الارستقراط فاحب فتاة تظاهرت بانها بنت باشا واءتقد انها «الوحي الجديد الى جايي يبرهن للناس ان الفقير والفني عند الله سيان وانهم في ميدان الحب متساوون» ثم فوجيء بالحقيقة المرة «بنت باشا ايه ؟ هم بنات الباشا منتظرين صعايك زيك يعشقوهم اهي ضحكت عليك وبس» (٦) .

وقد ادت هذه الحواجز الصارخة الى انحرافات في سلوك الافراد ، فتحدثت اكثر من قصة عن تنكر الانسان لطبقته ، فما ان تتيح الصدفة لشخص ان يرقى الى طبقة اعلى عن طريق المال او العلم حتى ينفصل عن طبقته ويصير حربا شعواء عليها ، يخرج على عاداتها ولهجاتها ولبسها وينكر اهله ويتبرأ منهم ، بدلا من ان يتعاطف معهم - وهو الخبير المكابد لشقائهم - ويرفع من مستواهم . وقد بلغ هذا المسلك حد الظاهرة التي لفتت نظر كثير من المصلحين ، منذ عبد الله النديم في مقاله «عربي تفرنج» والمويلحي الذي قال على لسان احد التجار يشكو ابنه «ما زال هذا الولد يزيد في تعذيبي وتكديري منذ خروجه من المدرسة ، فاصبح لا يكلم اهله الا بالرطانة ولا يعرب عن غرضه الا بالتعنيف والتأنيب لا يرضى عن شيء في البيت ، فاذا جاءوا له بالماء قال فيه الميكروب ، واذا اتوه بالخبز او الجبن قال علي بالميكروسكوب . . حتى حير الجبث اهل البيت في طعامه وشرابه فوق ما حيرني في اختلاف ملابسه وتعدد ازيائه ، وكلمة عارضته بشيء شمع بانفه استكبارا ولوى عنقه استحقارا وسخر بي لجهلي وفخر علي بعلمه» (٧) .

وفي قصة «خاله سلام باشا لمحمود تيهور يتنكر سلام باشا لاهله تماما وينسى خالته وهي البقية الباقية من اسرته ولا يذكرها الا في حالة موتها ليقيم السرادق الفخم ويدعو الكبراء ويجعل الصحف تتحدث عن جنازتها وتصف فخامة الاستقبال . ووالد محسن فسي «عودة الروح» وهو الفلاح الاصيل ينساق مع زوجته التركية فسي حملاتها العدائية على الفلاحين ويقول لمحسن وهو يشد جواربسه الحريرية الغالية مؤمنا على كلام زوجة «فلاح تقولي ايه» والحاجب في «يوميات نائب في الارياف» يصف اهله من الفلاحين بانهم جاموس ابيض .

ويصل التنكر احيانا الى حد رفض البيئة المصرية والتعلق بالبيئات الاجنبية الراقية ، وكثيرا ما كان يحدث هذا في الشباب الذين تتاح لهم فرصة السفر للخارج فتجبره الحضارة ويجعله الفارق الهائل يرفض واقع قومه ويحاول الاندماج في هذه البيئات الراقية . ومن ثم كثر الزواج من الاجنبيات ، ولم ينتج عن هذا الزواج «تغريب» الزوجة واندماجها في البيئة المصرية ، بل ادى الى «تغريب» الزوج وخسارة المجتمع لتجاربه وذكاء هذه الطليعة المتقدمة . وقد شكل هذا الاتجاه ظاهرة جعلت الشيخ عبد العزيز جاويش يتخوف من الزواج بالكتاتيبات ويطالب بالمدول عنه ، فيقول تحت عنوان «الرابطة الاهلية» . . . : «واذا كان الزواج بالكتاتيبات يقضي الى مفسدة في الجماعة او اخلال باحكام الدين وشعائره دخل في حدود المحظورات، فان مصر لا تتحرر بالهجين من ابائنا ولكن بالمصري الصحيح الذي لم تشبه شائبة اجنبية» (٨) . وجعلت الدكتور طه حسين يصف هذا الاتجاه بأنه حرام مقوت وان نتيجته «لا شيء الا ان يصبح الرجل

(٦) «في ظلال الدموع» تأليف محمد شوكت التونسي ص ٣٥ (القاهرة - مطبعة وهبه سنة ١٩٢٩) .

(٧) «حديث عيسى بن هشام» ص ١٢٩

(٨) انظر مجلة «الهداية» (مارس سنة ١٩١٠) ص ١١٣

الكاتب يبتعد عن واقعه ويهرب الى فلسفته المتشائمة ، وحسن في قصة «الرحيل» لمحمود البدوي يعرف في تصوفاته وتأملاته ، وقصة «في الظلام» للبدوي ايضا تقدم لنا فيلسوفا انمزاليا لا يريد ان يلقي بنفسه في خضم الحياة وهي تهوج حوله «من كسل شيء زوجين اثنين» .

وهذا يفسر لنا غلبة «التيار الذاتي» على قصص الرواد ، فالقاص يلقي بظله على شخصياته وتحس بحضوره في تيار القصة ، فالدكتور هيكل يلقي بظلاله على شخصية حامد ، وطه حسين يطل علينا في «الايام» و«اديب» ، وتوفيق الحكيم نحس بملامحه النفسية من خلال «النائب في الايقاف» ، ومحسن الصغير في «عودة الروح» ومحسن الشاب في «عصفور من الشرق» ، والعقاد يصور نفسه من خلال «همام» - في رواية سارة - شخصا معتدا بنفسه ومؤمنا بتفوقه على الاخرين ، والملازني لا يكتفي بان يحمل «ابراهيم الكاتب» بصماته بل يصر على ان يختار له اسمه ومهنته .

ولا عجب فقد كان القاص شديد الاحساس بنفسه وبضخامة دوره ، وهو يرى نفسه من قلة قليلة في بيئته تكثر فيها نسبة الامية ، فهو يصارع ظلاما محيطا به من كل جانب ويروود ارضا مبهوثة الالغام بملأها الجهود والتأخر والعصبية والقيود الاجتماعية والسياسية ، فزاء هذه العوقات كان الكاتب يحس برسائلته وبجهوده الفردية ، فالعظامية عند العقاد قرينة العصامية (٧) ، وهي التركيز على القدرات الذاتية ازاء العوقات الخارجية آخذا من قول الشاعر (نفس عصام سودت عصاما ، وعلمته الكبر والاقداما) . وبركز طه حسين (٨) على خصال الصبر والمغالبة واحتمال الكره والتصميم على اقتحام العقبات كاسلحة تسليح بها في رحلة الحياة .

ومن هنا التقينا برواية فرد ولم نلتق برواية جماعة ، بمعنى ان البطولة الفردية هي السمة الغالبة ، انها رواية تحمل ظللا «لمحمية» تركز على الفرد وتبرز دوره وتجعله ملتنق لكل الاحاسيس . امسا البطولة الجماعية التي توزع الادوار على «فريق» يتقاسم النشاط والاهتمام فنكاد لا نجد لها صدى ، حتى رواية «عودة الروح» التي جعل توفيق الحكيم بطلها جماعة سماهم «الشعب» لم تسلم من تركيز الاضواء على «محسن» الصغير بين هذا الشعب ، فهو امل المؤلف من اول الرواية وهو الذي - على الرغم من صغره - يحس ببناقضات المجتمع وبفساد التركيب الطبقي وبالظلم الواقع على الفلاح . والاشادة بالروح الجماعي في هذه الرواية جاءت - على لسان فرنسي - وكأنها نظرية تقريبية او بحث تاريخي حول نفسية الشعب المصري .

ولهذا اتخذت رواية هذه الفترة - وهي التي تسمح بتعمد الشخصيات - نهجا معيناً وشكلاً تقليدياً ، يتمثل في خط بياني يرسم كفاح بطل ، ويسير هذا الخط في حالة تصعيد (تأزم) ، ثم يأخذ عند نقطة معينة في الهبوط (نهاية) . ولم نجد هذا الشكل الذي يتركب من خطوط متوازية ومتداخلة ومتقابلة ، بعيداً عن الحدة التنظيمية ومشاكلا للحياة في تعقد تركيبها وتداخل علاقاتها .

والتركيز على حركة الشخصية والمبادرة الفردية للمحمية هو الذي جعل القاص يهمل «المكان» كشخصية تتفاعل مع الفرد انمرا

(٧) انظر «عصاميون عظماء» ص ١٩ (القاهرة - كتاب الهلال - العدد ٣٥) .

(٨) انظر «هذا مذهبي» ص ٤ . (القاهرة - كتاب الهلال - العدد ٤٨) .

وبيئته وابناؤه وبنانه اوروبيين في كل شيء» (١) . ويوضح لاشيين في قصة «الطواط» (١٩٢٥) ويصل احيانا الى حد المباشرة ، خطورة هذا الاتجاه ، اذ يصاب الشئ بالفربة وعدم الانتماء ويصير كالطواط لا ينتسب الى الحيوانات ولا ينتمي الى الطيور .

ويحدث احيانا ان البيئات الاجنبية ترفض محاولة المصري في التساق بها ، وتسخر من تكوينه وثقافته ولا تعبا بعواطفه ومشاعره ، وتحاول ان تستغله - كقريب - بطريقة تخلو من الانسانية ، وتتخذة وسيلة لاغراض في نفسها ثم تلفظه حالما تنتهي المهمة ، فيحدث حينئذ رد فعل في نفس الشاب - وهو غالبا ما يكون مثقفا حساسا - فيرتد برومانسية الى بيئته الاصلية يدفن في حضنها آلامه واحباطه ، ويحاول ان يرفض - بمبالغة - البيئة الاجنبية لينسى تجاربه المريرة معها . ان «محسن» في «عصفور من الشرق» تخدعه «سوزي» وتظاهر بحبه لكي تتخذة وسيلة لاسترداد صديقها النافر «هنري» ، فيصاب بصدمة ويلجأ في احلامه الى السيدة زينب «حاميتي الطاهرة» كما يقول المؤلف في الاهداء ، فتلمس على قلبه وترفرق على جروحه ، ثم يتحاور مع عامل روسي - مصاب بداء السل - فينفث كل منهما عن نفسه ، وبريان ان اوروبا «فتاة شقراء جميلة رشيفة ذكية ولكنها خفيفة انانية لا يعينها الا نفسها واستبعاد غيرها» (٢) - تماما كماحبهه المتقلبة سوزي - وان كل الخير في الرجوع الى الشرق منبع الاديان الصافي . و«اديب» طه حسين وهو «ذكي النفس امام البصيرة» تهجره «الين» فيصاب بالاضطراب ويكتب في ازمته لصديقه «اليسنت مصر اولي بي وألست انا اولي بمصر ، ان في مصر حميدة وان في فرنسا الين ، وجوار حميدة على بقضها لي ، أهون عليّ من جوار الين» فان حميدة لم تؤلب عليّ ولم تكدي وانما تلقت اساءتي اليها بالصبر والعفو ، اما الين فقد تلقت احساني اليها بالجحود والعقوق» (٣) .

وعقدة التظاهر انحراف كثيرا ما كان يحدث من الطبقة المتوسطة فتحاول التعلق باذبال وشكليات الطبقة العليا . ويبدو ان هذه العقدة كانت مسيطرة على الاسر السورية في مصر ، فقد عقد عيسى عبيد وشقيقه شحانة - وهما من اصل سوري - اكثر من قصة تدور حول هذا الموضوع ، ففي قصة «انا لك» (٤) ارهقت الام اسرتها لكي توفر لهم مظهرا يتيح لماري الحصول على عريس ثري ، و«ثريا» - في القصة المسماة باسمها - تنعلق بالمظاهرة وتشدق باللغة الفرنسية لانها كانت تطعم باقتناص احد ابناء الاسر الغنية والتزوج منه» (٥) ، وعائلة ذوري في قصة «البائنة» (٦) يرهق نفسها من اجل الحصول على بائنة كبيرة لابنتهم .

واذا كان الحاجز الطبقي الصارم قد ادى الى هذه الانحرافات الايجابية - ان صح هذا التعبير - فقد ادى - من ناحية ثانية - بطائفة من المثقفين الى الانمزالية والهروب من مجتمعهم . فابراهيم

(١) انظر مجلة «الهداية» (مارس سنة ١٩١١) ص ١٨٧

(٢) «عصفور من الشرق» تأليف توفيق الحكيم ص ١٨٣ (القاهرة - مكتبة الاداب بالجماميز - د.ت) .

(٣) «اديب» للدكتور طه حسين ص ٢٤٩ (القاهرة - مطبعة الاعتماد - د.ت) .

(٤) انظر «احسان هانم» ص ٩

(٥) «ثريا» تأليف عيسى عبيد ص ٣٧ (القاهرة - مطبعة رعسيس بالفجالة سنة ١٩٢٢) .

(٦) انظر «درس مؤلم» تأليف شحانة عبيد ص ٢١ (القاهرة - المكتبة العربية سنة ١٩٦٤) .

وتأثيرا ، فلم يتصور ان المكان بمعناه البيئي وبما يرسب فيه من عادات وتقاليد ، يمكن ان يقاسم الشخصية البطولة وان يغيرها كما هي تحاول ان تغيره ، فاكتفى القاص في الحديث عن المكان ان كان ينثر صفات او تقديم تقرير ، كشيء كمالى يسعى به الى اصفاء (رتوش) خارجية . اننا نقرأ مثلا ((جسر على نهر دربنا)) او نقرأ ((ثلاثية نجيب محفوظ)) فنحس ان المكان هنا قد اتمثل بيننا كشخصية متفاعلة تناوى الفرد او بناؤها .

واذا كان الرواد لم يتعمقوا الجذور ، فقد كانت لهم طرقهم الخاصة والمحدودة لزلزلة هذا الكيان الاجتماعي ومحاولة التشكيك فيه . فلجا بعضهم الى اسلوب ((المقارنة)) ، ووضع امام القارئ بطريقة قد تكون غير فنية نماذج من الطبقة المترفة في موازاة نماذج من الطبقة الفقيرة ، ويميل لاشين كثيرا الى هذا الاسلوب ، ففي قصة ((سخرية الناي)) يقدم لنا انسانا فقيرا قد دفعته فلسفته في الحياة الى الرضا والقناعة ويضع في موازاته شابا غنيا يعيش في شقاء بسبب المرض ، وفي قصة ((يحكى ان)) يقيم زواجا بين ((مبروك افندي درويش)) الموظف الفلبان وبين ((نعمات هانم)) الثرية المدللة ، بل نحس انه يعتمد المقارنة حتى في صورته الجزئية وأنه يريد بهذه المقارنة ان يوجه النظر الى الفروق الهائلة ، فهو يقول عن منزل ((الباشا)) وبعد ان وصف منزل ((حواء)) . . ((وبيت الباشا لا يتعد كثيرا عن بيت حواء جغرافيا اما فيما عدا ذلك فالسما والارض والشرق والغرب ، حديقة واسعة منسقة اجمل تنسيق وممر من زلط ذي الوان تتكون فيه رسوم غاية في الابداع)) (١) .

وهناك من اتخذ وسيلة حاملة لتخطي الحواجز بين الطبقات ، فاذا كان الواقع بهذه الحواجز الصارمة فلا اقل من ان يلجا الى الخيال فيتخذ الحب وسيلة للجمع بين الضدين ((ان جمهور القراء (١) ((حواء بلا آدم)) للاشين ص ٦٥ (القاهرة - مطبعة

الاعتماد - دت) .

يطلب قصة عن اميرة جميلة غنية تقع في ورطة فينجيها من الموت شاب جميل فقير شجاع فيتزوجها)) (٢) .

فعالم الحب لا يتعرف بالفروق وتنكسر فيه الطبقية ولا يخضع للمواصفات الاجتماعية لانه حديث الفطرة والانسانية ، فالفتاة الغنية في قصة ((ربي لمن خلقت هذا النعيم)) (٣) والتي تسكن في قصر يطل على النيل ، تحب شابا يسكن في الحمازوي ، ويخضع الاب في ليلة مقمرة صافية لهذه العواطف فيرجع عن عناده وبذلك ينتصر الحب على الحواجز الاجتماعية . ان ((احمد عليوي)) يتعلق ((بزهيره)) لكسى يكسر الحاجز الطبقي وينتصر عليه بوسيلة ما ((ليس من الانتصار لتلك الناحية الاشتراكية في روح كل شاب فقير مثلي ان ينشئ علاقة غرامية مع امرأة كزهيرة سليله بيت كبير)) (٤) .

ولكن كثيرا من القصص سخر من هذه الوسيلة الحالة التي لا تلبث ان تنكسر فوق صخرة الواقع ، وتمنع الجمع بين الضدين (قصة زينب) وتصيب الشخص الحالم بالهزيمة ((سنة شحاتة الكمساري)) والانهار العصبي (قصة حواء بلا آدم) .

تهكم الرواد اذن من النماذج المترفة والطبقات الحاكمة والفتات الدخيلة وحملوا على ادواتها الادارية في تنفيذ المخطط ، وهاجموا الانحرافات السلوكية والخلقية . وكل هذا - مع اعتبارات اخرى - قرنا خطوات من ((الشخصية المصرية)) الاصيله ، موضوع الدراسة القادمة .

القاهرة

(للبحث بقية)

عبد الحميد أبراهيم

(٢) ((في وادي الهموم)) ل محمد لطفي جمعة ص ٤ ((المقدمة))

(القاهرة - مطبعة النيل سنة ١٩٥٥) .

(٣) انظر ((ما تراه العيون)) ص ٥٣

(٤) ((حياة الظلام)) لمحمود كامل ص ٨١ (القاهرة - الطبعة

الرابعة سنة ١٩٤٠) .

كارل ماركس

تأليف

روجيه غارودي

ترجمة : جورج طرابيشي

((يستقطب ماركس وتراثه اليوم مشاعر الامل والفضب عند الناس اجمعين ، ويمثل فكره ، بحب او بسخط ، سؤالا ووعدا وكفاحا بالنسبة الى البشر جميعا والطبقات كافة والامم قاطبة .

ذلك ان هدف هذه الفلسفة هو تغيير العالم ، وليس فقط تغيير الفكرة التي نملكها عنه . . . فقد ازاح ماركس النقاب عن الفلسفة بوصفها تعبيرا عن عمل البشر وصراعاتهم ، ونزع ايضا قناع الفلسفات التي كانت تزعم انها تحاق فوق هذا العمل وهذه الصراعات ، وكشف الممارسات والسياسات التي انيطت بتلك الفلسفات مهمة تبريرها او تمويهها .

لقد اصبح فكر ماركس الوعي الفاعل لمصر باكملة . فهو يعلمنا كيف نستخلص قانون التطور التاريخي لمصرنا ، ويساعد كلا منا على ان يعي معنى حياته ومعنى المستقبل الذي يحمله في طوايا نفسه ، ومعنى مسؤوليته تجاه هذا المستقبل .

ان فكر ماركس يبدو اليوم ، بالنسبة الى انصاره واعدائه على حد سواء خميرة الاختتمارات الانسانية قاطبة في القارات الخمس . فهو يستدعي لدى بعضهم مشاعر الحقد واللعة ، والاضطهاد والمحاقق البشرية على نطاق لم يعرفه التاريخ قط ، ويثير لدى الجماهير الغفيرة التي وجدت فيه منفذا للنجاة وموقدا للرجاء اندفاعا معجزة نحو البطولة والنضحية .

وما اخذه هذا الكتاب على عاتقه هو محاولة تفسير تلك الواقعة الهائلة)) .

الثن : ٥٥٠ ق.ل.

صدر حديثا